

تحوّلات الثقافة بتأثير السياسة

وانعكاساتها على التربية

أ. ثناء عطوي

مؤسسة الفكر العربي

Les changements culturels dus à la politique: quel impact sur l'éducation?

Thanaa Atwi

Fondation de la Pensée Arabe

Le papier présenté est constitué de quelques idées centrées sur le fait que la culture est associée à la politique de l'idéologie durant les années de guerre. Chose devenue une réalité culturelle accablée par cette relation, et conduisant à un ensemble de confusions conceptuelles, sur l'idéologie, l'intellectualisme, la politique et la culture.

"إن التاريخ نفسه لا ينتهي أبداً، يبدأ من جديد كلّ يوم، وحين نعتقد أنه يقول لنا وداعاً، فإن ما يعنيه حقاً هو أراكم لاحقاً".
إن هذا الاشتباك المستمرّ مع التاريخ، يؤكّد لنا أن حركة التاريخ نفسها ليست في نهاية التحليل سوى حركة الوعي هذه كما تتجسّد في نمط السلوك، ولا عقلانية للتاريخ سوى هذه العقلانية - أي هذا الشكل الإيديولوجي المحدّد من الوعي الاجتماعي - التي تجعل من التاريخ حركة الوعي في وصول الإرادة إلى هدفها، على حدّ تعبير المفكر الماركسي مهدي

عامل. فالحاضر يملك مفتاح الماضي، والبنية الاجتماعية القائمة ككلّ متماسك تلتقي، من حيث هي عناصر مترابط في عناصر أخرى، إلى بنية اجتماعية سابقة، أو تشير إليها في وجودها الحاضر.

انطلاقاً من هذا المفهوم الكليّ للبنية الاجتماعية وترباطها، جاءت التحوّلات السوسيوثقافية شاملةً، لأنّ الأزمة كانت شاملة، وبالتالي ارتبطت الثقافة والتربية ضمناً بإيديولوجيا السياسة، بعد أن بدأ منطق النزاع الأهلي يفرض نفسه في بداية السبعينيات، وأصبح الواقع الثقافي مُثقلًا بتلك العلاقة مع السياسي. حدث هذا المرور من موقع إلى آخر، وأدى ذلك كلّه إلى تشويش مفاهيمي، وتضليل إيديولوجي، ومجادلة عقيمة، انزاح فيها المثقف إلى عدم توكيد التناقض ما بين التزامه كمثقف عضوي يفرضه عليه دوره من جهة، وتموضعاته الجديدة على قاعدة النفعية والخضوع للأمر الواقع من جهة ثانية.

لقد ارتبط السياق التاريخي لهذه التحوّلات بالتطوّر السياسي الذي مرّت به المنطقة في النصف الأخير من القرن الماضي. وعبّرت تلك التحوّلات عن كل ما كان قد بدأ يتشكّل منذ اندلاع الحرب الأهلية وقبلها، وتحديدًا منذ النكبة الفلسطينية سنة 1948. فقد تغيّرت بُنية المجتمع العربي نفسه خلال العقود الخمسة الأخيرة، بعد بزوغ الزمن الثوري وسيطرة الكفاح المسلّح، ومن ثم صعود حركة القوميين العرب، وازدهار اليسار، ونجاح الثورة الإسلامية في الثمانينيات، وصولاً إلى ذروة الحرب اللبنانية وتداعياتها.

في خضم ذلك كلّه تغيّرت الثقافة، وتغيّر دورها، وغادر الكثير من المثقفين مواقفهم المعارضة إلى ملاعب السلطة أو الأحزاب الموالية، انزلقوا إلى تموضعات وإلى عصبٍ وجماعات، "حجبتها الإيديولوجية الطائفية لتؤيد الانتماء للطائفة لا للوطن، وتؤبّد النظام السياسي الطائفي وتعيد

إنتاجه". لقد قدّم بعض المثقفين المسألة الطائفية على قضايا الوطن، وقدّم كلّ مثقف أطروحته على أنها "تطوّر"، أو "تراكم"، أو "صيورة" أو "انكفاء" أو "ضرورات" أملتّها ظروف الحرب والسلم، أو الهزائم والانتصارات.

كانت تلك التحوّلات أشبه بحالة عبور جماعيّ، أو خروج من مجتمع بكامله إلى أماكن أكثر ضيقاً وديكتاتورية وسيطرة "للهويات القاتلة"، بحسب تعبير أمين معلوف. كان انزلاقاً للفكر من "مستوى التحليل العلمي إلى مستوى التضليل الإيديولوجي". تغيّرت الأنتلجنسيا، وانتقلت من مواقع المعارضة واليسار إلى مواقع مرتبطة بالسلطة والمال وخسرنا المعركة الثقافية لصالح القوى التي اشترت الأفكار. ويقول الكاتب فواز طرابلسي أن "معظم المثقفين اللبنانيين أصبحوا في مكان آخر، هناك ظاهرة لا تحتاج إلى تسمية، وهي هذا التحوّل العام، أي انتقال قسم كبير من الأنتلجنسيا من موقع معارضة ويسار إلى موقع تبرير للسلطة أو وسطي؛ هذا من ناحية، أما فيما يتعلّق بالانتقال الفكري فلا يحتاج إلى الكثير من الأدلّة، والظاهرة هي النزوح من مواقع يسار إلى ألوان مختلفة من الليبرالية. وفي نظرة سريعة على الصحف، يمكن بسهولة فرز المثقفين واصطفاقاتهم".

لقد انطوت تلك التحوّلات على تحديّات شائكة ومعقّدة، جعلت المثقفين المعنيين بالتغيير وتشكيل الوعي، والذين تنقلوا من موقع إلى آخر ومن فكر إلى نقيضه، هم الغالبية العظمى، فيما بقيت القلّة القليلة منهم على مواقعها. أصبح هناك معنى مختلفاً لليسا واليمين، للوطني والانعزالي.. إلخ. أصبح المعنى مختلفاً والأدوار مختلفة أيضاً، هم أضافوا في تحولاتهم أرقاماً وليس معاني، واتّخذوا ألقاباً مرنة لانقلابهم على أفكارهم والترويج لنقيضها، كمثل أنها توافقية بينما هي تلفيقية، أو أنها ديمقراطية بينما وجهتها أصحاب الديكتاتورية والمشاريع التقسيمية. دافعوا عمّا هو قائم،

وانقلبوا على دورهم المتمثل ب"الالتزام"، و"الموقف" و"الصورة" التي بينها الآخرون عنهم، وتضعهم محاولة الخروج عنها في موضع الشبهة.

إن التحوّلات الثقافية التي عشناها بتأثير السياسة كانت شديدة التعقيد، وهي لا تشبه أي تجربة ثقافية عربية. لقد كانت مسارات المثقفين عندنا متحرّكة جداً، على قدر ما شهدنا من حروب وقضايا دفعتهم إلى الذهاب والإياب المستمرّ. كانت انعطافات غير مفهومة وأحياناً غير مبرّرة، ولم تكن ذات طبيعة سوسيوولوجية، وإنما أشبه بصيغة ارتهان للأمر الواقع على حساب المبادئ والأفكار الكبرى.

حدث ذلك كلّه في زمن الحرب، وكان الرهان على مراجعة شاملة للإحاطة بأسباب تداعي الثقافة والسياسة معاً بمثابة الضرورة، لكن ما أعقب الحرب لم يكن أفضل مما سبق تلك المرحلة. وفي دراسة تحت عنوان "اليسار اللبناني في زمن التحوّلات العاصفة" الصادر في شهر أبريل الماضي عن دار الفارابي، يقول الكاتب كمال هاني "لم يتمخّص انتهاء الحرب الأهلية اللبنانية في أوائل التسعينيات، عن تغيير جوهري في بنية النظام السياسي اللبناني الطائفي، وعن إخراج البلد من نفق نزاعاته وأزماته الدورية المتفجّرة. بل إن المسار التنفيذي لاتفاق الطائف الذي وقّع سنة 1989 قد أغلق الباب عملياً أمام إمكان إصلاح هذا النظام، وساهم في تعميق المعوّقات التي تعتمل فيه، واقترون تطبيقه بإحكام قبضة التحالف الفجّ بين أمراء الحرب والطوائف والمال الذين اضطلعوا بدور الوكلاء المحليين للتوازن الإقليمي الدولي الذي نشأ في أوائل التسعينيات. لقد تكرّس واقع التدخل الخارجي في إدارة شؤون البلاد، واتجه كلّ من أطراف التحالف المسيطر نحو إحكام سيطرته الحصرية على "جمهور طائفته" عبر تغذية الانتماءات والعصبيات واصطناع الخصوم واستنفار مشاعر الخوف

والقلق، واستخدمت تلك الأطراف لهذا الغرض إعلامها الخاص وخطابها السياسي ومنظومة متكاملة من المفاهيم والرموز والإيحاءات".

لقد أصاب ذلك كلّ التربية والمدرسة وقطاع التعليم العالي أيضاً، بعجزٍ وقلّة فعالية، وأصبح هذا القطاع منظومة معطّلة بطبيعة الحال ضمن سياقات اجتماعية وسياسية تعيش على وقع هذا الخلل العام. كما طرح ذلك إشكاليات كثيرة طالمت مرتكزات النهج التربوي - التعليمي في لبنان، وتصدّت لإمكانية إعادة تشكيل سياسة تعليمية على أسس وطنية صحيحة.

وعلى وقع هذه الفوضى التي ضربت بنية الثقافة والسياسة معاً، وأثرت في الفهم العلائقي للمتغيّرات، فقدت التربية القسم الأكبر من وظيفتها، ما أدى إلى نهوض مدرسة ضعيفة وقليلة الإنتاجية، وسيطرة أنماط من التفكير الهشّ، وخروج جيل قلق غير منتمٍ، مستعدّ للانشقاق عن مجتمعه كما يستعدّ المرء لأي شيء بهذه السهولة. جيل تاه بين مثقف قديم ينسلّ بخفّة من مبادئه والتزاماته، وتيار طائفي وديني يُعيد تشكيل المجتمع على أسس من التضليل والتخلف.

إن هذا الخلل التربوي العام، يضع أصحاب الاختصاص أمام مهمّات أساسية ملقاة على عاتقهم، إنها مهمّات للحاضر والمستقبل، تتمثّل في التحديد الدقيق لما نريده من أهداف، وصياغة برامج تستند إلى كل ما هو صالح ومفيد مما راكمناه، وبلورة تصوّرات تحاكي تطلّعات الجيل وشروط عصره، "الجيل الذي قدّم للمثقف آليات جديدة، بدأ من المدوّنات ووصل إلى الشّارع".. إن المطلوب محاكاة أساليب التعليم الحديثة والمدرسة العصرية والأساتذة أصحاب العقول المنفتحة.

لا نريد أن نفترض حلولاً لا حلول لها. لكن هناك ضرورة لإخضاع كل التجربة للنقاش، وإعادة الاعتبار إلى خيارات أساسية تنهض بالواقع

المدرسي بالاستناد إلى تجارب متقدّمة علينا في هذا المجال. علينا أن نعمل بجدّ وجهد كي لا يخرج تلاميذنا من التربية إلى التنظيمات والعصبيات والتطرّف، أن نغيّر في طرائقنا وأدواتنا، فنحن جميعنا معنيون بهضة الواقع التربوي بعد أن استنفدنا الكلام عليه، ودعوة كل القوى الديمقراطية والمدنية للانخراط في عملية إعادة التأسيس، وتحرير الخطاب الثقافي من التبعية، وتخليص الجيل الجديد من رواسب التجربة التي كانت "كالمصل المرّ في أوردّة هذا الوطن".

إن ذلك ممكن التحقّق كما أوضح تقرير المعرفة العربي، إذ إن "التغيّرات في التنشئة المعرفية للشباب تأثرت بعاملين مهمّين: صعود نسبة التعليم وتغيّر بنية الأسرة العربية، وهذا يتمثّل في التغيرات الاجتماعية الحاصلة في منظومة الوعي لدى الشباب العربي التي كانت مصدراً لاتجاهات جديدة، وهو وعي مختلف بتأثير تقانة المعلومات والإعلام ومواقع التواصل الاجتماعي".

إن التربية ليست خياراً، إنها إكراه ومصير. هي مركز تفكيرنا، وهي عمق الوعي، تصوغ المعاني وتدلّنا على أسماء الأشياء وماهيتها. التربية هي الثقافة وليست جزءاً منها، وهي المحرك الأساس للتقدّم، وهي احتكام للمستقبل، تشغل الثقافة وتجدها، تساجلها وتحاكمها، وتؤسّس للأخلاق والوعي، كونها تشكّل نقطة بداية وليست نهاية.

إشارات مرجعية

- "اليسار اللبناني في زمن التحوّلات العاصفة" كمال هاني
- أزمة الحضارة العربية أم أزمة البرجوازيات العربية؟ مهدي عامل
- "المثقف الانتقالي من الاستبداد إلى التمرد" شيرين أو النجا.
- "نحو نهضة جديدة لليسار في العالم العربي" كريم مروة
- "تحوّلات المثقف اللبناني منذ ستينيات القرن العشرين" فناء عطوي



Thanaa Atoui

ثناء عطوي

حائزة على دبلوم دراسات عليا في علم الاجتماع الثقافي (معهد العلوم الاجتماعية-الجامعة اللبنانية). مسؤولة قسم الإعلام في مؤسسة الفكر العربي وباحثة في مركز الفكر العربي للبحوث والدراسات. عضو في الجمعية العربية لعلم الاجتماع وفي نقابة المحررين اللبنانيين. نشرت كتاب حوارات في المسارات المتعكسة: تحولات المثقف اللبناني منذ ستينيات القرن العشرين وهو، بمثابة بحث تحاوري حيث وثقت وناقشت التنقلات المتنوعة، ومن ثم التموضعات المتعددة، لغالبية المثقفين اليساريين اللبنانيين. وبفعل ظروف شخصية مختلفة، في مواقع متفرقة، أغلبها سياسي وبعضها ديني. أنجزت مجموعة من البحوث والمقالات والتحقيقات الثقافية والسياسية والاجتماعية. شاركت في العديد من المؤتمرات والندوات الفكرية المتخصصة في الوطن العربي وهي مهتمة في موضوعات التنمية الثقافية والفكرية في الوطن العربي، وقضايا الثقافة والفكر والاجتماع.

Thanaa Atoui, écrivain et journaliste, chercheur dans les affaires de développement culturel. Travaille dans Fondation de la pensée arabe. Elle est l'auteur du livre: Dialogues controversées: changement d'engagement des intellectuels libanais depuis les années soixante du XXe siècle, une véritable recherche interactive qui documente et discute les divers mouvements de la majorité des intellectuels Libanais de gauche, à travers les différentes circonstances, vers des postes et des positions religieuses militantes.